الأدب العربي وتاريخه

في

عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث

بقلم

محمود رزق سليم

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م

كل نسخة ليس عليها امضاء المؤلف تعتبر مزورة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

الأدب العربي وتاريخه

في

عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث

بقلم

محمود رزق سليم

الاستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م

كل نسخة ليس عليها امضاء المؤلف تعتبر مزورة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين .
وبعد فهذه مجالات وجيزة تعرض الأدب العربى وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين وعصر النهضة الحديثة فى مصر والشام .

وهى مع إيجازها واضحة دقيقة مركزة ، أردت بها معاونة طلاب الأدب على استيعاب موضوعاته فى العصور المذكورة فى سهولة ويسر وسرعة ، مع الإشارة إلى مشاكله وفتح الطريق أمامهم للبحث عنها واستكمال دراستها . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

المؤلف

التعريف بعصر المماليك

حكم المماليك البلاد المصرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ . وقد أقاموا دولتهم على أنقاض الأيوبيين ، واستمروا فى الحكم إلى أن فتح العثمانيون هذه البلاد .

وقد كانت أسواق الرقيق نافقة فى العصور الوسطى بين بلاد أواسط آسيا وغربها ، بسبب ما دانتابها من ألوان النزاع وضروب الفتن والدمار ، وما شب فيها من حروب الصليبيين والتتار والعثمانيين وغيرهم .

وكانت أمواج هذه الحروب تطغى ذهاباً وإياباً فى البلاد المذكورة ، فاستحر القتل وزاد الترمل واليتم ، وضاعت معالم أسر ، وتقوضت دعائم أخلاق .

فعاون كل هذا على رواج أسواق الرقيق من أجناس شتى ، وبخاصة الجنس التركى والجركسى وما إليهما ، فاشتد فيهم الجلب والبيع والشراء .

وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى — من أواخر سلاطين الدولة الأيوبية فى مصر — قد رأى أن يبتاع لنفسه عدداً من هؤلاء الإرقاء ، فاستكثر من شرائهم ونشأهم تنشئة عسكرية وأسكنهم جزيرة الروضة فسموا « المماليك البحرية » .

واتخذ منهم الملك الصالح خاصة جنده ، ورقى أكابرهم إلى مناصب الإمارة — قيادة الجند — فصار ذلك نظاماً متبعاً من بعده .

واشتهر منهم فارس الدين أقطاى ، وعز الدين بن أيبك الجاشنكير ، وركن الدين بيبرس ، وسيف الدين قلاوون . وارتقى بعض هؤلاء فيما بعد ، إلى مرتبة السلطنة .

وقد عاون هؤلاء المماليك وأمراؤهم فى حروب مصر وفى قتال الصليبيين ، معاونة كبرى ودفعوهم عن الديار المصرية .

To: www.al-mostafa.com

وبعد وفاة الملك الصالح ، جلس على عرشه ابنه المعظم توران شاه . ولكن وقع بينه وبين مماليك أبيه خلاف شديد أدى إلى قتله وإلى إقامة زوجة أبيه « شجرة الدر » ملكة على البلاد مكانه .

وبعد قليل تزوجت «شجرة الدر» أحد كبار المماليك وهو الأمير « عز الدين ابن أيبك الجاشنكير » وتنازلت له عن السلطنة ، فاستبد بها وأصبح ملكا على البلاد وذلك عام ٦٤٨ هـ ، وبهذا انتقل حكم مصر من الأيوبيين إلى مماليكهم .

وظلت سلطنة مصر فى يد هؤلاء المماليك ، حتى فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ — كما أشرنا — وكانوا كلما خلا عرش البلاد من سلطانها اشتور كبار الأمراء واختاروا من بينهم أميرا لولاية السلطنة ، وقد يكون هذا ابناً للسلطان السابق .

وبرز منهم فى السلطنة ملوك أجلاء اشتهروا فى ميدان الحرب أو السياسة أو الإصلاح ، مثل بيبرس وقلاوون والناصر محمد وبرقوق وقايتباى .

ويقسم المؤرخون هذه الدولة دولتين: البحرية والجركسية ، وتبدأ الجركسية من عصر الظاهر برقوق عام ٧٨٤ هـ . ولا أرى داعياً إلى هذا التقسيم سوى الاختلاف فى الجنس ، فإن أكثر سلاطين الدولة الأولى من الأتراك ، وأكثر سلاطين الدولة الثانية من الجركس ، وفيما عدا ذلك تتشابهان إلى حد كبير فى نظام الملك ووظائف الدولة والإدارة واختصاصاتها وطرق القضاء والتعليم وتكوين الجيش وفرض الإقطاع ، إلى غير ذلك .

وظل المماليك يتجددون ويتكاثرون عن طريق الشراء من الخارج ، كما كان الشأن فى أول نشأتهم . وأخذ سلاطينهم وأمراؤهم يستكثرون من شراء الجدد ويربونهم تربية عسكرية خاصة تؤهلهم للجندية والحروب والحكم .

وعاشوا جميعاً فى غالب أمرهم ، طبقة حاكمة مستبدة مترفعة عن الشعب . وشاب حكمهم مساوىء كثيرة منها كثرة الفتن والحروب الداخلية ، والإسراف فى مال الشعب وإرهاقه بالضرائب الفادحة ، وامتلاك أرضه الزراعية دون أبنائه وفرض

نظام الإقطاع وتحريم الجندية على الشعب وحرمانه الإصلاحات الحيوية الضرورية له ، إلى غير ذلك .

إلا أن لهم بجانب ذلك ، حسنات يذكرها لهم التاريخ ، فهم فى جملتهم كانوا ذوى حماسة للإسلام ذادة عن المسلمين وعن بلادهم ضد المعتدين عليهم من التتار والصليبيين ، كما أنهم غزوا باسم مصر وملكوا البلاد المجاورة لها ورفعوا علمها فوق ربوعها ، حتى كانت سلطنة مصر فى عهدهم إمبراطورية واسعة الأرجاء عظيمة الشأن ، مهيبة ، ضمت البلاد الشامية والحلبية والحجازية وغيرها . وكذلك من محاسنهم أنهم تركوا مناصب القضاء فى منازعات الشعب لقضاة الشرع غالبا ، وفتحوا كثيراً من المساجد للعبادة والتعليم ، وعاونوا على بعث علوم الدين ، ورحبوا بالوافدين إلى مصر من أبناء الأمم الإسلامية للعلم أو التجارة أو غير ذلك — وسنشير إلى ذلك بشيء من التفصيل - كما كان كثير منهم سخى اليد براً معيناً على نوائب المعروف .

ونحاول أن ننوه فيما يلى بما كان فى مصر خلال حكمهم من نشاط علمى وأدبى .

بين بغداد والقاهرة

اتخذ بنو العباس مدينة بغداد عاصمة لملكهم العظيم فصارت مركزاً للعلوم والآداب الإسلامية ، واتجهت إليها العيون فى شتى ممالك المسلمين ، ونشط فيها العلماء والأدباء وأهل الفن والصناعة والمترجمون والمؤلفون ، حتى أصبحت دارة العلم وهالة الأدب وملتقى الثقافات ، ولونت حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى بألوانها إلى حد كبير .

وظل ذلك زمناً طويلا حتى ضعف بنو العباس ، وانشق عن سلطان بغداد كثير من عواصم الأوطان التابعة ، وأخذت تتعدد مراكز الآداب الإسلامية ، وأنشئت مدينة القاهرة فى عهد الفاطميين ، فاحتلت مركزها عاصمة بين عواصم المسلمين ، وبدت مركزاً جديداً هاما من مراكز هذه الآداب .

ولبثت بغداد مع هذا ، أحد هذه المراكز الكبرى ، حتى قضى عليها التتار وأزالوا دولة العباسيين جملة عام ٦٥٦ هـ .

قبل ذلك ببضع سنوات ، كانت سلطنة مصر قد انتقلت إلى أمراء المماليك — كما نوهنا — فتزعم المماليك العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد وزوال العباسيين ، ومن ثم أصبحت القاهرة أهم مراكز العلوم والآداب الإسلامية على الإطلاق ، وزاد نشاطها وصار لها فى عهد المماليك من الأهمية العلمية ما كان لبغداد فى عهد العباسيين ، وأخذت تلون بألوان حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى ، ولو إلى حد ، وشاركها فى ذلك جملة من العواصم المصرية كالإسكندرية ودمياط وأسيوط وقوص .

أسباب النشاط العلمى

نشطت الحركة العلمية فى القاهرة وعمت المدن المصرية الأخرى ، وامتدت حتى شملت كثيراً من العواصم الإسلامية كدمشق وحلب ، وفيما يلى أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك :

١ — وقوع كثير من البلاد الإسلامية فى يد التتار:

التتار من الجنس المغولى الذى يسكن الأطراف الشمالية لبلاد الصين . وقد كان التتار بداة جهلاء وثنيين ، وكانوا متفرقين فى صحراوات الصين حتى وحدهم ملكهم جنكيزخان وزحف بهم منذ عام ٦٠٦ هـ على أواسط آسيا وغربها ، فقتلوا مالا يحصى من المسلمين . وما زال سيلهم طاغيا بعد جنكيزخان حتى احتلوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ بقيادة ملكهم هولاكو . فقتلوا آلافا من أهلها وأعيانها وأزالوا خلافتها ، فضعفت بذلك شوكة العرب والمسلمين ، فتطلعوا إلى حماة جدد يدافعون عنهم ويدرءون أعداءهم بعيداً عن ديارهم ، فلم يكن هناك أقوى من سلاطين مصر المماليك ، الذين نصبوا أنفسهم ذادة عن الدين وحماة للمسلمين ، شاعرين أن الأقدار حملتهم أمانة الدفاع عن تراث الإسلام .

٢ — قتل العلماء والأدباء وإتلاف الكتب :

تتبع التتار — فيما تتبعوا — علماء بغداد قتلا ، وكتب حضارتها إبادة وإتلافا ، وذلك أثناء الفتح . ولقد قيل إن هولاكو قتل علماء بغداد ومنهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده ، وأمر بإلقاء جميع الكتب التى فى دور الخلفاء فى نهر دجلة ، فأضاع بذلك على الدين واللغة ذخائر لا تعوض . فكان لهذه الكوارث آثارها فى نفوس علماء الأمة ، ورد فعل شديد دعاهم إلى النهوض لإحياء هذا التراث العلمى المجيد وتجديده .

٣ — هجرة العلماء :

ولما اشتد عبث التتار فى العراق وبغداد وغيرهما فر كثير من العلماء من وجههم ، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدراً ، فوفدوا إليهما ، فوجدوا فيهما ترحيباً وأهلا بأهل ، سواء أكان ذلك من الحاكمين أم من أبناء الشعب . وقد أغرى ذلك كثيرا من العلماء فى الأصقاع الأخرى ، فوفدوا هم كذلك إلى مصر والشام حيث الأمن والسكينة والكنف الرحب . فاشتغلوا بالقضاء أو الإمامة أو الكتابة أو التعليم أو نحو ذلك . وعاونوا هم والمتوطنون من العلماء على تعليم الناشئة وإنضاجها وتحميلها أمانة العلم من بعد .

واطرد وفود العلماء إلى مصر والشام طول عصر المماليك ، وأصبح الترحيب بهم سنة متبعة بدافع الأخوة الإسلامية الصادقة .

وممن وفد إلى مصر : ابن خلكان الإربلى المؤرخ صاحب وفيات الأعيان وابن مالك النحوى الأندلسى صاحب الألفية والتسهيل ، وابن خلدون المغربى صاحب كتاب العبر ومقدمته الشهيرة ، وابن تيمية الحرانى الإمام المجتهد صاحب الفتاوى ، وابن منظور الإفريقى صاحب لسان العرب .

٤ — إحياء الخلافة :

ولما استتب أمر السلطنة للظاهر بيبرس ، رأى أن يقيم خلافة عباسية ثانية بالديار المصرية فاستقدم أحد أمراء بنى العباس وأثبت نسبه وبايعه بالخلافة ومعه قضاة الشرع وأمراء الدولة فى حفل عظيم . ومن ثم استمد هو منه السلطنة .

واستمرت الخلافة قائمة بمصر موروثة فى البيت العباسى حتى عام ٩٢٣ هـ إذ زالت على يد العثمانيين الذين أرغموا آخر الخلفاء على التنازل عنها لسلطانهم سليم الأول ، ونقلوها إلى عاصمة ملكهم .

والخلافة العباسية الثانية ، وإن كانت هزيلة ضئيلة الجاه بجانب سلطان البلاد ، تعتبر كسبا أدبيا كبيراً لمصر ، ورمزا روحيا قويا اتجهت إليه قلوب المسلمين

شرقا وغربا ، وذلك مما عاون على جعل القاهرة قلبا للعالم الإسلامى ، ومركزا للعلوم والآداب الإسلامية ، كما كان دافعاً لحكام مصر على تشجيع علماء الدين .

٥ — الغيرة الدينية عند الحكام وتعظيمهم العلماء :

وقد كان حكام البلاد ، فى جملتهم ، شديدى العصبية لدينهم ، عظيمى الغيرة على مصالح المسلمين . ولذلك كافحوا الصليبيين وهزموهم مراراً ، وكافحوا التتار وصدوا تيارهم عن البلاد .

ودفعتهم غيرتهم أيضا إلى تعظيم العلماء ورعايتهم ، واستشارتهم فى أمورهم العليا ، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما .

على أن سطوة علماء الدين حينذاك كانت واسعة ، ولهم جاه عند العامة عريض ، لما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب وإيمان شديد ، وزهادة فى الدنيا ، وتعصب للحق ، وجرأة على الباطل . فلعل هذه السطوة كانت أحد الأسباب التى دعت الحكام إلى تعظيمهم . ولقد كان السلطان الظاهر بيبرس يخشى الشيخ عز الدين عبد السلام ، فلما مات الشيخ قال الظاهر : « ما استقر ملكى إلا الآن » .

ولا يخفى ماهذاالتعظيم وهذه العناية من أثر كبيرفى شحذهمم العلماء ودفعهم إلى النشاط العلمى النافع للاحتفاظ بمكانتهم وجاههم .

٦ — شعور العلماء بواجبهم :

وقد شعر العلماء بواجبهم وبالأمانة الثقيلة الملقاة على كاهلهم إثر سقوط بغداد وكارثة الدين والعلم بها ، وإثر ما أصيبت به دول المسلمين شرقا وغربا على يد الفرنجة . فأخذوا السير ، بل وتنافسوا فى ميدان التعليم والتأليف ، فقاموا بذلك ، بحركة إحياء علمية جليلة الشأن . وازدان كثير منهم بالعلم الغزير ، والزهد فى الدنيا ، والغضب للحق ، والغيرة على مصالح الأمة ، وبهذا اكتسبوا مكانة ملحوظة بين أبنائها ، ونفوذا ضخما بين طبقاتها .

وبلغ بعضهم حد الاجتهاد والقدرة على التجديد والابتكار فى ميدانه ،

ونذكر منهم العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد القشيرى ، وتقى الدين السبكى ، وابن تيمية الحرانى ، وابن حجر العسقلانى ، والجلال السيوطى ، وزكريا الأنصارى .

٧ — إنشاء دور التعليم ورصد الأوقاف عليها :

لا شك أن إنشاء دور التعليم سبب أساسى وعامل جوهرى لنشر العلم والأدب بين طبقات الأمة . وهى البيئة الطبيعية الأولى للمشتغلين بالعلوم والآداب طلابا وأساتذة .

وقد بدأ عصر المماليك ، وفى مصر عدد لا بأس به من هذه الدور ، منها جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله ، ومدارس أخرى عدة أسسها الأيوبيون فى مدينة القاهرة كالمدرسة الصلاحية ، والمدرسة الناصرية . وكلها كانت عامرة بالدراسات المختلفة .

وقد شمر سلاطين المماليك وأمراؤهم وبعض أهل الفضل عن ساعد الجد ، على مدى العصر ، وأنشئوا عدداً ضخما من دور التعليم فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية . وبلغ ما أنشئوه فى القاهرة وحدها نحواً من أربعين مدرسة ، وأوقفوا عليها الأوقاف الدارة التى تهيئ لها أسباب الحياة والاستمرار فى أداء رسالتها .

وقد تبارزوا فى إنشاء هذه المدارس تقربا إلى الله ورعاية للشعب أو مظهراً من مظاهر الفخر أو وسيلة لاستبقاء بعض أموالهم فى يد ذراريهم عن طريق الوقف على هذه المدارس واشتراط النظر لذريتهم .

واعتادوا أن يفتتحوا هذه المدارس بحفلات شائقة تلقى فيها الخطب والقصائد وتمد الأطعمة أو تفرق الأشربة ، أو نحو ذلك ، ويختارون للتدريس فيها أبرع العلماء وأفضل الشيوخ .

ومن هذه المدارس : المدرسة الظاهرية التى أسسها الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة عام ٦٦٢ هـ ، والمدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون .

والناصرية التى أنشأها العادل كتبغا وأكملها الناصر محمد بن قلاوون . ومدرسة السلطان حسن ، والمؤيدية « جامع المؤيد» . وغير ذلك مما يراه المتجول فى أرجاء القاهرة .

ومن أهم هذه الدور التعليمية المجيدة : المارستان المنصورى ، وهو بناء ضخم فسيح ، بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ بخط بين القصرين . ويحتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب . ويعتبر من أعظم الأعمال التى خلدت ذكر قلاوون . وندر أن يوجد له نظير فى تلك العصور الخالية . وكان ينقسم عدة أقسام : فيه قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال . وقد جهز بصيدلية عظيمة تحتوى على أنواع الأدوية والعلاج ، وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين ، وهيئت به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب ، وضمت إليه خزانة كتب جليلة الشأن . وكان العلاج والتعليم فيه بالمجان ، كما كان الشأن فى جميع دور التعليم الأخرى .

وبهذه المناسبة نذكر أنه لم تكن هناك سياسة تعليمية عليا مرسومة تشرف عليها الحكومات وتقوم بتنفيذها متكاملة — كما هو الشأن فى العصر الحديث — ولهذا كانت الأوقاف هى الوسيلة الوحيدة أو الأساسية لضمان استمرار دور التعليم مفتوحة الأبواب عامرة بطلابها وشيوخها . وكثيراً ما كانوا يغالون فى هذه الأوقاف ويبالغون فى بذلها ، كما كانوا يبذلون بين وقت وآخر ألواناً من الهبات والعطايا والصدقات للطلاب والشيوخ .

٨ — إنشاء دور الكتب :

وقد عنوا عناية ملحوظة بإنشاء دور الكتب وتزويد دور التعليم بها وحشد المؤلفات النفيسة فيها ، رغبة منهم فى معاونة علمائها وطلابها فى جهادهم العلمى النبيل ، وقل أن تجد مؤسسة تعليمية حينذاك خالية من مكتبة زاخرة . وإذا لاحظت أن الكتب — لهذا العهد — كانت خطية ونادرة وقليلة النسخ ومتفرقة فى شتى النواحى وغالية الثمن ، قدرت ما كانوا يبذلونه فى سبيل جمعها من جهد ومال .

ومن أشهر خزائن الكتب : خزانة جامع الحاكم بأمر الله زوده بها السلطان العادل بيبرس عام ٧٠٣ هـ ، وخزانة جامع المؤيد زوده بها منشئ الجامع وهو الملك المؤيد شيخ عام ٨١٩ هـ، وخزانة القبة المنصورية وأنشأها المنصور قلاوون .

هذا عدا ما كان يقتنيه بعض كرام الأمراء والعلماء من مكتبات خاصة ، فقد روى ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » بين حوادث عام ٨٨٨ هـ أن القاضى نجم الدين يحيى بن حجى ، كان عالما فاضلا ، ولما مات فى العام المذكور وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة .

٩ — اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية :

وهذا من أهم الأسباب التى استبقت اللغة العربية حية متداولة ، بل نابضة نامية تؤدى حاجة الدولة وحاجة الناس فى شتى الميادين .

وقد كان حكام البلاد أعاجم عن العربية ، فهم بفطرتهم لا يغارون عليها ولا يعطفون على أهلها ولا يشجعون علومها وآدابها . ولكن الظروف القاهرة التى كانت تحيط بهم دفعتهم إلى العناية بها وتشجيع أهلها ، ذلك لأن لغتهم التركية كانت إلى ذلك الحين قاصرة عاجزة عن أن تؤدى حاجة الدولة ودواوينها المختلفة ، وتقوم بشئون القضاء والفتوى والتعليم وما إلى ذلك . بينما كانت العربية مطوعة ممرنة على ذلك منذ أمد بعيد ، هذا فضلا عن أنهم كانوا يحكمون شعوبا عربية ولا يمكن أن يتم التفاهم بينهم إلا بلغتهم ، لهذا اتخذوا العربية لغة رسمية فى دواوين الدولة ، واستخدموا فى هذه الدواوين عددا من « المتعممين » متخرجى المساجد لمزاولة المكاتبات العربية التى تحتاج إليها الدولة . وكان ألمع دواوينها حينذاك « ديوان الإنشاء » الذى اختص بالمكاتبات الديوانية العليا ، وكان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة .

وقد كان ذلك كله سببا فى رواج العربية ، وفى رواج الفصحى داخل الدواوين ، وبخاصة فى كتابة المراسلات والوثائق العليا ، وسببا فى ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء .

نتائج هذا النشاط

من أهم نتائج هذا النشاط العلمى ثلاثة أمور :

أولا : اتساع حركة التعليم :

كان تأسيس المدارس ورصد الأوقاف عليها والعناية باختيار شيوخها ، وبذل المعونات لطلابها وإجراء الأرزاق عليهم ، سبباً قوياً فى اتساع حركة التعليم وإقبال الشيوخ والطلاب على العمل بهمة ونشاط . فراجت سوق التعليم ووفد الطلاب إلى المساجد زمراً من كل فج من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية — كما هو الشأن فى وقتنا الحاضر — حتى ضاقت بعض دور التعليم بطلابها .

وقد روى المقريزى عن الجامع الأزهر : « أنه حتى عام ٨١٨ هـ كان به عدد كبير من الفقراء المنقطعين لطلب العلم يبلغ عددهم ٧٥٠ رجلا ، وهم ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم . وأنه كان عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وأن الداخل إليه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره ، وأن أرباب الأموال صاروا يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز ، والحلاوات لا سيما فى المواسم » .

هذا ، ومن المناسب هنا أن نتحدث قليلا عن أنواع التعليم فقد كان بالبلاد نوعان :

١ — التعليم العسكرى : وقد كان مقصوراً على طائفة المماليك محرما على أبناء الشعب . وكان من عادة السلاطين أن يستوردوا المماليك الجدد من أسواق الرقيق ، ويدفعوهم إلى طباق القلعة حيث يعلمون تعليماً عسكرياً خاصاً يؤهلهم

لخوض غمار الحروب والمحافظة على الدولة . ومن ينبغ منهم يعتق ويمنح إقطاعاً ومالا وخيلا وقماشاً ويعطى لقبا من ألقاب الأمارة. ثم قد يترقى صعداً — حسب كفايته وحيلته — فى سلك الإمارة حتى يصير أميراً كبيراً وقد يدفع به حظه إلى مرتبة السلطنة .

٢ — التعليم الشعبى : وهو مباح لطبقات الشعب بالمجان . ومكانه المساجد وهى دور التعليم فى ذلك العهد وكان تعليما حراً غير مقيد ، وكان الطالب توجهه رغبته الخاصة إلى تنظيم جدول دروسه واختيار شيوخه والتنقل من مسجد إلى آخر طلبا للعلم .

والدراسة فى المساجد تعتبر دراسة عالية ، تسبقها مرحلتان يمر بهما الطالب عادة — والمرحلة الأولى مرحلة « الكتاتيب » وقد كانت منتشرة فى أرجاء البلاد ، ويتعلم الصبيان فيها مبادىء القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم — والمرحلة الثانية مرحلة حفظ الكتب . وفيها ينكب الطالب بنفسه على عدة كتب مختارة فى علوم شتى ، يحفظها عن ظهر قلب ، تمهيدا للمرحلة العالية. وفيها يبذل الطالب جهداً كبيراً فى حفظ الكتب حفظاً جيداً ويمتحنه شيوخه فيما بعد ، فيما حفظ ، ويمنحه كل شيخ إجازة بنجاحه تسمى « إجازة المراضة » . — وبعد ذلك يلتحق بالمساجد ويتصل بكبار الشيوخ ويأخذ عنهم العلم ، وقد ينتقل من مكان إلى آخر ، بل من مصر إلى غيره طلبا للشيوخ — وبخاصة شيوخ الحديث — وقد يلازم شيخا أو أكثر ، ملازمة الظل ، ليستوعب أكثر ما عنده من العلم . فإذا نضج الطالب من الناحية العلمية اختبره أستاذه ، فإذا نجح منحه إجازة بالفتوى أو التدريس أو نحوهما .

والدروس المقررة حينذاك ، المتعارف تدريسها فى المساجد كانت — فيما عدا حفظ القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة — طائفة غير محدودة من كتب الفقه والأصول والحديث والتفسير والمنطق والقراءات واللغة ، تحفظ ويجرى شرحها فى حلقات الدرس .

وكانت كتب الدين ودروسه هي المفضلة عند المتعلمين بعامة ، ويليها كتب اللغة والأدب ودروسهما ، ثم يلي ذلك كتب العلوم الأخرى ودروسها .

وكانت أهم كتب الدين : كتب الفقه ومذاهبه الأربعة ، وكتب الحديث ومصطلحه وتاريخ رجاله .

ومن أمثلة الكتب التي سعدت بالعناية والرواج في ذلك الحين ، حفظاً ودراسة : المنهاج الأصلي لمحي الدين النووي ، والشاطبيتان في القراءات ، ومختصر القدوري في الفقه ، والعمدة للحافظ النسفي في الأصول ، والكافية لابن الحاجب في العربية ، وتلخيص المفتاح في البلاغة للقزويني ، والكنز في فقه الحنفية ، وألفية ابن مالك في النحو ، وفصيح ثعلب في اللغة ، وإيساغوجي في المنطق .

ثانياً : كثرة العلماء والأدباء :

زخر العصر ، نتيجة لذلك ، بعدد وافر من علماء المذاهب الأربعة ، وبخاصة المذهب الشافعي ، لا يقلون عن أسلافهم ذكاء وفطنة ، ولا إدراكا لمسائل المذهب وإحاطة بها ، ولا مقدرة على الفتيا . وكذلك زخر بحفاظ الحديث ورجال التصوف والكلاميين والأصوليين والنحويين واللغويين والأدباء والكتاب والشعراء ، والأطباء والمنجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم .

وتوالت طبقات هؤلاء الرجال الأفاضل ، طبقة بعد طبقة على مدى العصر وكان جيل الملك الناصر محمد بن قلاوون أملأ أجيال العصر بأفاضل الرجال ، وهو النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، ويليه النصف الثاني . وأكثر هؤلاء الرجال تخرج في أكثر من علم وفن .

ومن الأئمة المجتهدين : ابن عبد السلام «٦٨٤هـ» ، وابن المنير الإسكندراني «٦٨٣ هـ» ، وابن الرفعة «٧١٠ هـ» ، وتقي الدين السبكي «٧٥٦» والجلال السيوطي «٩١١ هـ» .

ومن حفاظ الحديث وشراحه : الجمال الزيلعي «٧٦٢هـ» والعز بن جماعة «٧٦٧هـ»

وزين الدين العراقى « ٨٠٦ هـ » ، وابن حجـــر العسقلانى « ٨٥٢ هـ » والقسطلانى « ٩٢٣ هـ » .

ومن رجال اللغة والنحو : ابن مكرم الإفريقى « ٧١١ هـ » ، وأثير الدين أبو حيان الأندلسى « ٧٤٥ هـ » ، وابن هشام المصرى ٧٦١ هـ والجلال القزوينى ٧٣٩ هـ .

ومن رجال القراءات : الراشدى « ٦٨٥ هـ » ، والجزائرى « ٦٨٨ هـ » وسحنون « ٦٩٥ هـ » ، وتقى الدين الصائغ « ٧٢٥ هـ » .

ومن المؤرخين : ابن خلكان « ٦٨١ هـ » ، والأدفوى « ٧٤٩ هـ » ، والنويرى « ٧٣٣ هـ » ، والصفدى « ٧٦٤ هـ » ، وابن خلدون « ٨٠٨ هـ » ، والمقريزى « ٨٤٥ هـ » ، وابن إياس المصرى « ٩٣٠ هـ » .

ومن النابهين فى غير ما سلف : ابن النفيس الطبيب « ٦٨٧ هـ » ، والأصبهانى فى المنطق والأصول ، والباجى « ٦٨٨ هـ » ، والمغربى رئيس أطباء القاهرة « ٧٧٦ هـ » ، ومحيى الدين الكافيجى إمام المعقولات « ٨٧٩ هـ » .

ومن الأدباء شعراء وكتابا : البوصيرى والشاب الظريف وابن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى وابن نباتة المصرى والقلقشندى وابن حجة الحموى — وسنفيض فى ذكر هؤلاء فى مناسبات قادمة .

ثالثاً : انتعاش حركة التأليف :

وهذه الحركة أبقى آثار النشاط العلمى ، وقد كانت الوصلة الصالحة بين الماضى والحاضر . وهى بما أنجبت من مؤلفات ، حلقة ذهبية فريدة فى سلسلة العلم والأدب .

فى ذلك العصر ماجت البلاد بكثير من العلماء والأدباء الذين أقبلوا على التأليف بجمع أنفسهم وبشغف شديد ، وافتن بعضهم فى اختيار موضوعاته وتنويعها وترتيبها ، وأكثر بعضهم من مؤلفاته حتى عدت بالعشرات بل بالمئات .

ومن أكثر من التأليف : الجلال السيوطى وابن تيمية الحرانى وابن حجر العسقلانى وابن قيم الجوزية وتقى الدين السبكى وابنه تاج الدين صاحب طبقات الشافعية ، وصلاح الدين الصفدى ، وتقى الدين المقريزى وغيرهم كثيرون .

وقد كانت هناك عناية ملحوظة بالتأليف فى التاريخ والحديث ورجاله والفقه ومذاهبه والتصوف والقراءات ثم اللغة وفنونها .

وحقيقة كان كثير من هذه المؤلفات إما موسوعات جامعة ، وكتباً فياضة ، حشدت فيها مسائل العلوم حشداً ، وقصارى هم مؤلفيها الجمع والاختيار أو الشرح ، وإما مختصرات لكتب سابقة ، أو تدوين الفتاوى أو تسجيل المناقشات .

غير أن هذا لا يدعنا نغض من قيمة هذه المؤلفات ، فمن يعانى مشقة التأليف يشعر أن بعض ألوان التأليف المبتكر أيسر مشقة وأخف مئونة من بعض ألوان الجمع والاختيار أو الشرح والاختصار .

على أنك تجد روح الابتكار والتجديد بادية فى كثير من مؤلفاتهم أيضاً ، ومنها كتب الفقه وفتاواه وشروح الحديث وتفاسير القرآن الكريم ، وتسجيل حوادث التاريخ والنقدات التى تتخللها والعظات التى تستخرج منها . وحظى العصر بمجموعات رائعة من كتب التاريخ مختلفة الاتجاه ، فمنها فى التاريخ العام ، أو تاريخ الأعلام أو السيره النبوية أو تاريخ المدن والأمصار أو السير أو تاريخ مصر والقاهرة أو غير ذلك .

ومن أمثل المؤلفات فى ذلك : كتاب المجموع لمحيى الدين النووى فى فقه الشافعية ، وهو شرح لجزء من مهذب الشيرازى ، وفتاوى ابن تيمية الحرانى فى فقه الحنابلة . وفتح البارى لابن حجر العسقلانى وهو فى شرح البخارى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وهى فى التراجم ، ومقدمة ابن خلدون وهى فى فلسفة الاجتماع .

وإليك طوائف من مؤلفات العصر :

١ — من كتب التاريخ : الوفيات لابن خلكان . الطالع السعيد الإدفوى . الوافى بالوفيات للصفدى . الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى . النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى . والخطط والسلوك كلاهما للمقريزى . والضوء اللامع للسخاوى . وبدائع الزهور لابن إياس المصرى . وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطى .